اللص والكلاس

قصة بقلم سليمان فيّاض

دوى بوق اللوري ثلاثا ، فانبعث صوته خافتا سريعا في قلب الحارة. وعلى الاثر ، فتح مزلاج باب ، ومرق منه شبح ، وسمع صوت الباب وهو ينصفق بهدوء . وسار الشبح خطوات صوب سائق العربة . كان السائق متكئا بمرفقه على نافذة القيادة ، فبدا مع السيارة كتلة كثيفة من ظلام . وقال السائق بصوت خافت :

ـ كانك كنت تنظر خلف الباب . كيف حالها الليلة .

فقال الشبح ، وقد اصبحت انفاس السائق في وجهه :

ـ اسوأ من كل ليلة .. صحوت منذ وقت .. وجلست وراء الباب .. انتظر .. وافكر .

قال السائق وقد حدق بعينيه الى اعلى :

ـ انظر ..

كان هناك ضوء مصباح يعلو تدريجيا وراء زجاج النافذة .

وقال الشبح :

ـ انا واثق عندما صحوت ، انها كانت ترقبني .. انها لا تنام ابدا

وقال السائق وهو يفتح باب السيارة :

ـ هيابنا .. ادخل ، قبل ان تزعق علينا ، وتوقظ الحارة .

وتنهد الشبح . وادخل قدما بين المقعد وعجلة القيادة ، وكان راسه مائلا الى اعلى . وقال :

ـ لا فائدة . هيه . عين ترقبني ، واخرى .. على الصورة

ودخل الشبح الى العربة ، وجلس على المقعد . ونظر السائق خلفه بدوره . كانت هناك ملتصقة بزجاج النافذة المفبش . وكان جبينها وانفها على الزجاج تماما ، وملابسها تحيل الزجاج الى رقعة معتمة . وجذب السائق الباب فانصفق ، وعلا محرك السيارة . وراحت تمرق على ارض الحارة ، ثم انعطفت على اليسار مرتين ، وخرجت الى الطريق المعبد .

وقال السائق لرفيقه :

ـ غريب .. انها لم تنادي علينا هذه المرة .. ماذا بها ؟

فقال رفيقه :

ـ لا اعرف .. انها لم تتكلم ابدا منذ يومين .. وعندما كنت اغادر البيت كانت تخرج ورائي . وحين انظر خلفي اجدها ترقبني ، حتى اختفي عن عينيها . وعندما اعود ، اجدها في انتظاري . لقد سئمت ذلك كله. وفي الحجرة . هيه . ما علينا . فليحدث ما هو مقدر لنا.

ـ اكاد اراها ، وانا بعيد عن البيت ، وانت جالس معها ، نائما ، او تدخن ، وعيناها ، كما تقول : عين عليك ، وعين عليه . فليرحمه الله .

ـ منذ مات . منذ قتل . وهي تجلس على السجادة ، وتنام عليها ، وتاكل بجوارها . تصلي ،وتنظر الى صورته على الحائط . لم تعد تبكي، ولكنها مذهولة دائما .

ـ المهم الا تكون قد جنت . الا تتكلم ، وتطبخ ، وتكنس . انها امه . ولا بد ان تحزن عليه . ولكنها سوف تنساه . سوف تنسيها انت اياه .

وقال رفيقه ساخرا :

ـ اهه .. انا ؟ .. ليت بوسعي ذلك . منذ يومين ، لم تتكلم قط . كانت تنظر فقط الي ، دون ان تنبس بحرف واحد .

ـ الم تحادثها انت ؟

ـ حادثتها كثيرا . ولكنها لم تحادثني ابدا . مرة تتنهد . ومرة تأتيني بالماء او الطعام . لقد اصبحت اخاف من عينيها . ولولا انها . هيه . ما علينا ...

ـ ستكون غارة الليلة ممتازة . ستغنينا لعدة شهور ..

ـ حدثني . كيف قتل اخي .. ليلة الغارة ، على المعسكر ؟

ـ كانت سهرة الليلة لا مثيل لها . حشيش لم تذق طعمه من قبل . اليس كذلك ؟

ـ حدثني كيف قتل اخي ؟ قل .

وقال السائق مضيفا :

ـ ما يزال راسي يدور . والامواج الزرقاء الحمراء ، تلعب بعقلي

ـ قل . كيف قتل اخي ؟

وقال السائق متبرما :

ـ لقد رويتها لك مائة مرة .

فقال رفيقه بتوسل :

ـ ولكنني نسيتها . ارجوك

ورفع السائق من سرعة العربة . وقال بضجر ، في لهجة حادة :

ـ كان ذلك في التل الكبير . في معسكر الانجليز . وبعد ان ازلنا خطر اللغم . راح اخوك يقصف الاسلاك بالقصافة . ثم ازالها جانبا . ورحنا ندخل الى المخازن على ضوء النجوم . غنمنا ليلتها بضائع يزيد ثمنها على الفي جنيه . جوارب . وفانلات .. وبطاطين . وحتى الصابون ..

وقال رفيقه مقاطعا :

ـ وكانت الدنيا باردة !

ـ لا .. كان الوقت صيفا .

فقال رفيقه بحدة :

ـ بل كانت باردة ، ثم .. سطعت الكشافات ..

وسكت السائق ، واضاف رفيقه :

ـ و .. دوت الطلقات . وتلقى اخي دفعة من الرشاش ، وسقط على وجهه . لماذا لم تطفئوا كشافاتهم بالرصاص ؟

ـ لو فعلنا ، لقتلنا جميعا . كنا في الظلام . وكان من الصواب ان

تهرب

ـ وتركتموه وحيدا .

فقال السائق محتجا :

ـ كان معه ثلاثة !

وقال رفيقه بمرارة :

ـ قتلى .. مثله !

وقال السائق برقة ، مواسيا :

ـ لقد مات شهيدا

فقال رفيقه ساخرا :

ـ وهو يسرق ؟

ـ فعل ما يجب ان نفعله جميعا . ان نلحق بهم الخسائر . حتى يخرجوا من البلاد

واضاف السائق :

ـ ثم اننا ، كنا نجد ثمن ما ناكه !

ـ والليلة .. بمن نلحق الخسائر ؟ .. ما سنسرقه الليلة ليس انجليزيا !!

ـ انك متعب الليلة . يبدو انك لم تنم جيدا .

ـ انام ؟ .. لم تغمض عيناي الليلة قط .

ـ افضل ان نعود

فقال اللص بحزم :

ـ لا .. خذ العربة اذا شئت .. وساذهب وحدي

صمت السائق وهو يبتسم . زاد فقط من سرعة العربة . بينما راحت مصابيح الطريق تتوالى على الجانبين . وبجانب العين راح السائق يرقب الارض الرملية الواسعة ، على يساره ، وكان اللص يحدق بكلتا عينيه ، من وراء الزجاج ، في النجوم البعيدة . ولكنه بعد لحظة ، راح يراقب اعمدة المصابيح المضاءة ، وعلى اليسار ، بدات جدران المعهد الديني تقترب . وعلى اليمين لاحت الورشة كتلة من الظلام الداكن ، وراء السور الاسمنتي . وقال السائق :

ـ سنقف الان .

وانطفأت في الحال كشافات السيارة الامامية . وراحت سرعتها تبطىء ، حتى كف محركها عن الدوران . وهمس السائق لرفيقه :

ـ سننزل هنا

وهبط السائق اولا ، ثم هبط رفيقه . وقال السائق هامسا :

ـ انظر .. ها هو الحارس ، يقف فوق القطار .

ثم اضاف :

ـ ليس هناك سواه

وقال اللص بصوت مبحوح :

ـ اشعر بالبرد في كل مكان من جسدي

ـ ليس هذا وقته ، ثم اننا في الصيف

واضاف السائق :

ـ ماذا .. لو تسللنا وراءه .. ليس من حارس اخر على القطار .. معي سونكى .. فلنقتله به .

فقال اللص بذعر :

ـ نقتله ؟ .. لا . لا يمكن . لن يرانا ابدا

وقال السائق وهو يحرك يده بياس :

ـ انت حر .. ادفع السيارة من الخلف . اتعرف مكان العربة التي سنغير عليها ؟

ـ اعرفها .. انها هناك . بعد ثلاثة اعمدة ، من هذا العامود . امام باب المعهد تماما .

ووضع السائق كفه اليسرى على افريز النافذة الامامي . وكانت يمناه على عجلة القيادة ، تديرها ، بمهارة ، دون صوت . واخذت السيارة تندفع ببطء امام جسديهما ، حتى وقفت بجوار الرصيف الملاصق للسور . كان الحارس يدير ظهره نحوهما . وكانت المحطة كلها غارقة في الظلام . وليس هناك سوى ضوء النجوم المرتعش ، يبصبص للعيون . وقال السائق لرفيقه :

ـ اذهب الان . خذ هذا معك : تومي جن محترم.

ـ اني خائف الليلة .

ـ انت رجل ، ثم ان معك هذا الرشاش . ام تحب ان تعود .. هيابنا.

ـ لست صالحا للعمل الليلة .

فقال السائق محتجا :

ـ ولكنك انت الذي قلت لي ، واخترت كل شيء . لماذا جعلتني اذن اخذ السيارة ، وانا جندي وليس . ومع ذلك . هانذا غير خائف ابدا .

وقال اللص بعد لحظة :

ـ هات المدفع . لا .. لست احب العودة الى بيع الترمس ، بالمللايم، في شارع عباس .

وقال السائق متضاحكا :

دار المعارف بلبنان ش.م.ل.

بناية العسيلي ساحة رياض الصلح ص.ب. ٢٦٧٦

تقدم قصة صغيرة يتيم يشق طريقه في الحياة بين الصاعب والمتاعب حتى يصل إلى غايته . إنها قصة خالدة ... ستعيش إلى الأبد وسوف يقرأها الناس من الآن إلى آخر الزمان.

معركة فوق السفينة

لقد أرضت هذه القصة ملايين القراء في مختلف أنحاء العالم، ولا تزال ترضيهم وتسرهم وتكبرهم حتى اليوم

تأليف ر.ل. ستيفنسون

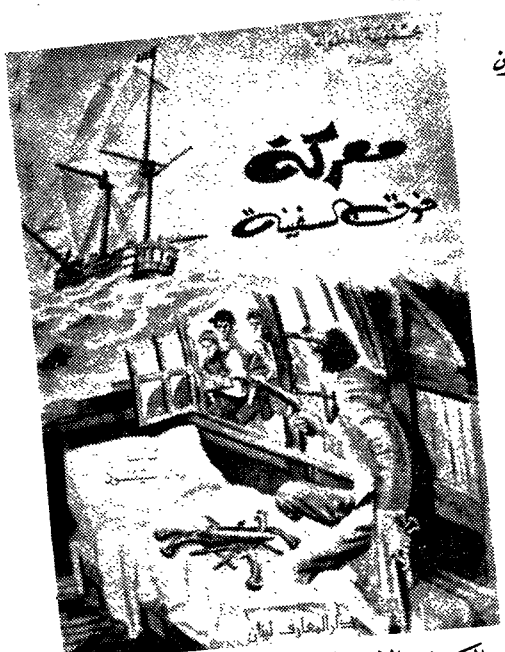

الثمن ١٥٠ ق.ل. أو ما يعادلها

تطلب من جميع المكتبات الشهيرة

ـ اذهب . ليست هذه اول مرة . اذهب . اذهب

واطل اللص برأسه فوق السور . ونظر الى الحارس . كان وجهه هناك جهة المحطة ، يحدق في النجوم . وتبسم اللص في سره على الحارس ، لانه ينظر الى النجوم ، وفي لحظة ، كان اللص قد قفز الى ما وراء السور ، واخذ يصعد المنحدر ، فوق تلة الفحم الناعم ، وعيناه تثقبان الظلام جهة الحارس . وفي ذهنه : ان ينبطح على وجهه، لو نظر الحارس ناحيته .

ولكن الحارس لم ينظر قط . كان ما يزال يحدق في النجوم . ثم انطفأت انوار المصابيح في اعمدة الشارع . وساد ظلام اكثر حدة امام عيونهما . بينما بزغت نجوم الميزان ، كعادتها كل ليلة . وقال كل من اللص والحارس ، في سره ، وهو يرقب نجوم الميزان :

« آه .. لو كان كل ما في هذه العربات لي »

واضاف الحارس لنفسه ، وهو ينظر الى فوهة مدفعه الرشاش :

« اذن لما اشتغلت حارسا »

واضاف اللص لنفسه ، وهو ينظر الى العربة :

« اذن لما اصبحت لصا »

ووقف اللص امام باب العربة . وتنهد برفق . لقد اختفى الان تماما عن عيني الحارس . وراح يتحسس الباب بيديه . وعثرت يداه بالسلسلة ، ولمست اصابعه طرفها الحديدي المدبب ، فرفعه بمهارة الى الثقب . ثم دلى السلسلة برفق على جانب الباب ، وثبتها بيده اليمنى ، حتى لا تتارجح . ومد اصابع يسراه ، وراح يضغط على الباب . كان يخشى ان يند عنه صوت ما يرشد الحارس . ولكن الباب انزلق في مجراه دون صوت . وعندما اصبح الباب في المنتصف تماما ، حدق اللص بعينيه داخل العربة . كانت مظلمة جدا ، وفكر ان احدا بها ، فتنفس بقوة ، وسمع صوت تنفسه عاليا . ولم يسمع اي شيء اخر . ليس هناك احد . وضحك في سره ضحكة صغيرة. يا للخوف !

وقال اللص لنفسه :

« داخل العربة بالات قماش . لو تركوها لي ، لفتحت محلا ، واصبحت تاجرا ، تاجرا لا يعرف العري ولا الجوع »

وفي الوقت ذاته ، قال الحارس مناجيا نفسه :

« كل هذه الاخشاب تحت قدمي . لو صارت لي ، لبنيت بيتا اسكنه ، ولاسكنت فيه اخرين ، وعشت من ريعه »

وقفز اللص برفق داخل العربة . واندفعت من تحت قدمه «زلطة» صغيرة فاصطدمت بعجلة العربة في الناحية الاخرى ، ثم سقطت . كان صوتها كالقذيفة في راس اللص ، فكتم انفاسه ، وراح يسمع ، حتى هدأ تماما . ولم يعد يسمع في راسه ، سوى صوت انفاسه ، تتردد بانتظام ، كدقات قلبه .

كانت الظلمة داخل العربة ، لا يرى فيها شيء ، حتى بياض الكف . كان اللص يعرف ما في داخل العربة . فعند العصر ، عرف من الرقعة المفتوحة في صفيح العربة ، انها محملة ببالات القماش . وعرف من معلوماته الاخرى ، التي جمعها طيلة النهار ، ان قطار البضائع هذا في طريقه الى سيناء ، ومنها الى الشام . وراحت يدا اللص تتحسسان بسرعة نظام البالات داخل العربة ، كانت كل الجهات في العربة مرصوصة بالبالات حتى السقف . اما الجهة اليسرى ، فكان بها صف واحد على ارض العربة . ولذلك وقف اللص عندها . وراح يرفع البالات المتوسطة الحجم واحدة بعد اخرى ، بيديه القويتين ، ويضعها عند فتحة الباب . ووقف لحظة ليستجمع انفاسه ، ثم نام على وجهه فوق البالات ، ودلى جسده خارج العربة ، حتى مست قدماه الارض ، فوضعهما برفق على « الزلط » . واخرج من جيبه خطافين حديديين ، وادخلهما بهدوء في شريطين من الصفيح يطوقان البالة الاولى وادار ظهره اليها ، فاصبح التوميجن ملتصقا بكتفه الايمن تماما . وامسك بالخطافين في يديه ، وحمل بهما البالة الاولى على ظهره ، وراح ينحدر على تلة الفحم ، عائدا الى السائق

وعند السور ، ادار اللص ظهره مرة اخرى . وفي وقت واحد ، كان السائق يمسك البالة بخطافين اخرين ، وكان اللص ينزع خطافيه . وهمس السائق للص :

ـ كيف الحال ؟

ولم يجب اللص ، الا بكلمة واحدة في همس :

ـ بخير .

وقال اللص لنفسه ، وهو يصعد تلة الفحم :

« العمل ينسي الانسان كل شيء ، حتى الخوف »

وكان الحارس يقول لنفسه عندئذ :

« لا شيء في الليل احلى من النوم »

كان الحارس يقف فوق العربة الخامسة جهة الورشة . وكانت العربة محملة بالواح من الخشب مرصوصة فوق بعضها ، ويحجزها من جوانبها قوائم حديدية متباعدة . وكان الحارس آنئذ يدلي راسه بين كتفيه ، متكئا بكتفه على احدى القوائم الحديدية ، مديرا ظهره للسور. وقال الحارس لنفسه :

« غدا ، اول الشهر . ساقبض مرتبي عند الضحى ، واذهب الى زوجتي واولادي »

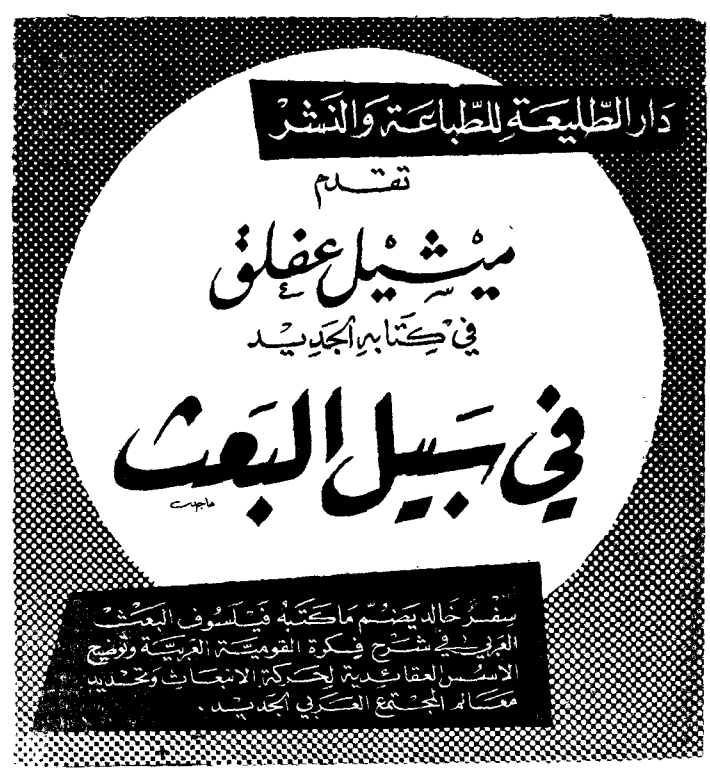

وراح اللص يسأل نفسه ، وهو يحمل البالة الثالثة :

« ماذا يا ترى في هذه البالة : قماش . صوف .. انها ثقيلة جدا »

وحين كان اللص يسلم البالة الخامسة للسائق . همس هذا له ، وهما مستديرا الظهر :

ـ يكفينا هذه الليلة . هيا . اقفز . فقد بدأت اخاف من الحارس .

وهمس له اللص بعناد :

ـ لا .. هناك بالة سهلة المنال .. لن تكون للبيع .

وقال له السائق مشفقا :

ـ هذا يكفي . دعك من هذه البالة .. السهلة !

كان العرق الساخن يغرق ظهر اللص وابطيه ، ويتحدر ملتهبا على جبينه وصدره . وقال اللص باصرار وهو يلهث :

ـ ستكون هذه البالة هدية لامي .. واقاربي

ولم يجبه السائق بحرف ، وابتعد عن السور . اما هو فراح يصعد تلة الفحم بمشقة . وسار على « الزلط » بغير حذر . ثم تسلق الى داخل العربة ، وحاول ان يزيل حبات العرق عن جفنيه . وفي تلك اللحظة ، كان الحارس يقول لنفسه :

« لو ان لصا جاء ليسرق القطار .. »

وسكت الحارس لحظة . ثم قال لنفسه بذات الصوت :

« ماذا سأفعل به ؟ »

وسمع صوتا في داخل نفسه ، يشبه صوته ، يقول له :

« ستتفق معه على المسروقات »

وسمع صوتا آخر ، يشبه صوته ، يقول له :

« ستقتله . انك تقبض مرتبك لهذا السبب »

كان اللص يحاول جهده لكي يرفع البالة ، حتى باب العربة . ولكنه وجدها ثقيلة جدا . واحس باعصابه ترتعش في ساعديه . فراح يدفع البالة بجسمه صوب الباب . وبرق خوف غامض في راسه كالشهاب. فقال لنفسه :

« ماذا لو راني حارس القطار . ساقتله على الفور »

ووجد نفسه يتردد في فكرة قتله :

« ستعلق امه هي الاخرى صورته على الحائط . واكون انا السبب»

كانت البالة آنئذ عند الباب ، فجلس الى جوارها ، واثناء نزوله ، اصطدم التومي بارض العربة الحديدي ، فرن صوت الصدمة عاليا . وشعر كان قلبه يكف عن الخفقان . وعلى الاثر ، سمع صوت الحارس بجواره في ظلام العربة :

ـ من هناك ؟

وانفتحت في اذنيه امواج الخوف . واحس بالعرق يتحول الى ماء بارد على جلده . وفي ذات اللحظة ، سمع محرك السيارة يهدر ، وشاهدها وهي تندفع بعيدا بسرعة خاطفة على ارض الشارع : « الكلب لقد فضحني » وسمع الحارس يطلق الرصاص على السيارة . شعر آنئذ بالرعب يجتاحه . اصبح الان محاصرا ، وعليه ان يواجه الحارس وحده ، ووجد نفسه ، دون ان يفكر ، يطلق رصاصة ، في الفضاء المواجه لعربة الحارس . وادار الحارس راسه جهة الهدف . ورأى الرصاصة وهي تئز امامه . وبعين خفية ، رآه اللص وهو يدير راسه ، فقفز على تلة الفحم ، وكمن فوقها ، ويده على زناد التومي . وراحت ذرات الفحم تتطاير مع انفاسه المذعورة الى انفه . كان الحارس ما يزال واقفا امامه فوق العربة . وفكر اللص ان بمقدوره ان يقتله الان . كان بمقدور اللص ان ينتهي منه . ولكنه فكر ان بوسعه الهرب في الظلام ، وان يعبر السور ، دون ان يلحظه الحارس ، ودون ن يقتله . وقال اللص لنفسه :

« ساقتله هو . لماذا هرب وتركني »؟

واسرع اللص بالوقوف نصف وقفة . وادار ظهره جهة السور ،ولمحه الحارس كتلة تتحرك ، فانكفأ على وجهه فوق الخشب ، وصوب مدفعه الرشاش الى ظهر اللص . ومد يده الى الزناد . سمع آنئذ صوت ضابطه يقول له :

« ستنال ترقية وعلاوة من اليوم ، ايها الجندي »

ودوت على الاثر ، دفعة من الرصاص ، اخترقت ظهر اللص . لم يكن اللص قد بلغ السور ولا انتهى من المنحدر . وانفجرت اضواء قوس قزح ، شديدة الوميض ، داخل راس اللص ، واستدار جهة الحارس . وسقط مدفعه من يده ، ود لو يرى وجه قاتله ، لكنه سقط على وجهه، وانغرس انفه في تلة الفحم جهة السور . وكانت قدماه عند الجهة المرتفعة من المنحدر . وفي راسه كانت هناك خلايا غير منظورة ، ما تزال تفكر وترى . وقفز الحارس من العربة ، وراح يخطو محني القامة بحذر وسرعة ، صوب هذا الجزء من تلة الفحم . وبعيدا راح الحراس يتوافدون عبر القضبان . وكانت الخلايا الغامضة ما تزال تعمل في رأس اللص . وتهدهده بحلم غامض ، كي ينام نومة الابد :

(كان هو يمد يده على الحارس ليطلق رصاصة ، والعالم كله رمادي اللون كالسحب ، بلا ظلال ولا اشياء ، ولكن الحارس كان واقفا بدون احتراس ، فترك هو التومي يسقط من يده ، وبكل رقة ، اشار للحارس باصبعه ، قائلا له بهذا الاصبع : تعال . كان يود ان يأخذه معه الى البيت ، ليشربا معا : قهوة ، ولبنا . وجاء الحارس . ونظر كل منهما في عيني الاخر بحنان . وذهبا معا مشتبكي اليدين ، دون خطو . ورفع يده ، وطرق سماعة الباب ، دون صوت . ولم يجبه احد . ونظر بجانبه، فلم ير الحارس ، حتى البيت قد اختفى . واصبح الان . وحيدا . لاشيء ابدا سوى الراحة)

وهبط الحارس تلة الفحم ، وسطع من يده ضوء بطارية قوى . كان اللص ملقى على وجهه ، ورأسه الى اسفل . ومد الحارس حذاءه ، ودفعه تحت كتف اللص ، عند الصدر ، واداره بحنق على ظهره . كان وجه اللص غارقا في فحم رطب اسود . ولمح الحارس التومي ملقى بجوار السور . كانت عينا اللص مفتوحتين . وقالت عينا الحارس لعيني اللص :

« لو لم اقتلك انا ، لقتلتني انت »

واجّ الحارس على ضوء بطاريته باب العربة مفتوحا ، وعلى حافته بالة لم تمس والتفت الحارس الى اللص . وتامل عينيه المفتوحتين بلا معنى ، وشعر بحنان نحوه . وقال لنفسه :

« اهذا هو الموت اذن ؟»

ومد الحارس يده ، وباطراف اصابعه ، اغمض له عينيه . وجلس بجواره على تلة الفحم . وراح يحدق بحزن في وجه اللص ، المغمض العينين ، واخذ يرقب هاتين العينين ، بينما كانت تتجمع عليهما قطرات من الندى . ثم اخرج صفارته من جيبه ، ووضعها في فمه، وراح يطلب النجدة .. النجدة !

القاهرة

سليمان فياض